الدرس الحادي والعشرون :

الفتح الأعظم

شهر الانتصارات :

نعيش اليوم في رحاب سيرة رسول الله ﷺ ، التي هي جزء من سنته ، نعيش اليوم في رحاب ذكرى عطرة . . . ذكرى الفتح الأعظم . . . فتح مكة ، قد اختصَّ الله شهر رمضان بما وقع فيه من انتصارات وأحداث عميقة الأثر في تاريخ الإسلام ، وحياة المسلمين . . . كما اختصَّه بالصيام والقيام وإنزال القرآن .

في السابع عشر من رمضان ، كان يوم الفرقان . . . يوم التقى الجمعان ، يوم بدر الكبرى .

في أوائل العشر الأواخر منه كان الفتح الأعظم ، كان فتح مكة . . البلد الحرام ، الذي جعله الله دارًا للتوحيد ، فجعله المشركون عاصمة للوثنية ومركزًا لعبادة الأصنام ، حتى كان حول الكعبة وحدها ثلاثمائة وستون صنمًا ، فعاد هذا البلد بالفتح للتوحيد والإسلام .

مرحلة حاسمة في تاريخ الدعوة الإسلامية :

كان فتح مكة مرحلة حاسمة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، ونقطة فاصلة دخل بها الإسلام في طَوْر جديد من القوة والتوسُّع ، والانتشار غير المحدود . . . وفي هذا يقول القرآن : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ﴾ (الحديد: ١٠).

رسول الله ﷺ في يوم الفتح :

ولستُ مُحدِّثكم ـ أيها الأخوة ـ عن قصة الفتح وأسبابه وأحداثه ، فذلك يقتضي وقتًا أطول ، ولكني مُحدِّثكم عن رسول الله ﷺ في يوم الفتح ، يوم نصره الله على

عدوه ، وحقَّق له أمله ، وأنجز وعده ، فها هي مكة العتيدة العاتية ، تسقُط أمام كتائب الرحمن وجنود القرآن . . . مكة التي خرج منها الرسول ليلا ، فها هو يعود إليها نهارًا . . . وخرج منها خُفية ، فها هو يعود إليها جهارًا . . . وخرج منها مُضطهدًا ، فها هو يعود إليها فاتحًا منتصرًا .

وليس أحب إلى الإنسان المهاجر من أن يعود إلى وطنه ومرتع صباه ، بعد أن أُخرج منها إخراجًا .

فلا عجب أن قرَّتْ عين رسول الله ﷺ بالفتح ، واستمع في سرور إلى عبد الله ابن أم مكتوم ، وهو ينشد بين يديه حين دخل مكة :

يـــا حبـــذا مكـــة مـــن وادي
أرض بـــــها أهلـــي وعـــوادي
أرض بـــها أمشـــي بـــلا هـــادي
أرض بـــــها ترســـخ أوتـــادي[1]

الناس بين البأساء والرخاء :

ومن الناس مَن يثبت في الشدائد والأزمات ، ويصبر في البأساء والضراء ، حتى إذا انزاحت الغمة ، وجاءت النعمة ، وأقبل الرخاء والسعة ، ركبهم الغرور ، وسيطر عليهم العُجب والكِبر ، وأعمتهم نشوة الظَّفَر والنصر ، وغرَّهم بالله الغَرور .

وهكذا عرفنا كثيرًا من الفاتحين المنتصرين من قديم وحديث . . . ولكن موقف رسول الله ﷺ يوم الفتح الأعظم هو أحد الدلائل على أنَّ الله قد اصطنعه لنفسه ، وصنعه على عينه ، وبعثه ليتمَّ به مكارم الأخلاق[2].

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (١٤١/٢) ، والخطيب في تاريخ بغداد (٢٩٢/١٣) .

(٢) إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد في المسند (٨٩٥٢)، وقال محققوه : صحيح وهذا قوي ، والحاكم في التاريخ (٦١٣/٢) ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، والبيهقي في الشعب باب حسن الخلق (٧٩٧٨) ، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٤/١) ، والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (١٩١/١٠) عن أبي هريرة بلفظ : « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق».

تواضع الفاتح :

لقد دخل مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح مُرجِّعًا ، وقد حنى رأسه تواضعًا لله عزَّ وجل ، حتى قال أنس ﷺ : دخل رسول الله ﷺ ، مكة يوم الفتح ، وبطنه على راحلته متخشِّعًا[1].

ولأول مرة ، ترى الدنيا فاتحًا ينتصر على أعدائه ، وتدين له عاصمة بلاده ، يدخلها في مثل هذا التواضع والإخبات والخشوع لله رب العالمين .

جاء الحق وزهق الباطل :

ونهض رسول الله ﷺ ، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد الحرام ، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم طاف بالبيت وفي يده قوس ، وحوله البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا ، فجعل يطعنها بعود في يده ، وجعل يقول : ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء:٨١) ، ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ (سبأ:٤٩)، والأصنام تتساقط على وجوهها[2]. . . وأمر بـ(هُبل) أعظم هذه الأصنام ، فكُسر وهو واقف عليه ، وأبو سفيان يشهد بعينه نهاية (هُبل) الذي وقف يوم (أُحد) يخاطبه ويقول : (أُعل هبل)[3]، ولهذا ذكَّره الزبير بذلك ، فقال : يا أبا سفيان ، قد كُسر (هُبل) فإنك كنت منه في يوم (أُحد) في غرور .

النبي ﷺ في جوف الكعبة :

ولما أكمل النبي ﷺ ، الطواف ، دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها ففُتحت فدخلها ، فرأى فيها الصُّور ، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل

---

(١) رواه الحاكم في المغازي والسرايا (٤٧/٣) ، وصححه على شرط مسلم ، وسكت عنه الذهبي .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في المظالم (٢٤٧٨)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨١) ، كما رواه أحمد (٣٥٨٤) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٣٨) ، عن ابن مسعود .

(٣) رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٩) ، وأحمد (١٨٥٩٣) ، عن البراء .

يستقسمان بالأزلام ، فقال : « قاتلهم الله ، والله إن استقسما بها قط »[1]، أي : ما استقسما بها قط .

ورأى في الكعبة حمامة من عيدان فكسرها بيده[2]، ثم أمر بالصور فمحيت[3]، ثم أغلق عليه الباب ، ومعه أسامة وبلال ، فاستقبلا الجدار الذي يقابل الباب ، حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع ، وقف وصلَّى هناك ، ثم دار في البيت وكبَّر في نواحيه ، ووحَّد الله تعالى[4]، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ، ماذا يصنع محمد ؟

المثل الأعلى في تسامح القادرين على الانتقام والاقتصاص :

إنهم هم الذين طالما آذوه وعذبوا أصحابه ، طالما امتزجت سياطهم بدماء المؤمنين ولحومهم .

إنهم الذين أخرجوه من أحبِّ بلاد الله إلى الله ، وأحب بلاد الله إليه .

هم الذين أخرجوه وأصحابه من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله.

إنهم الذين قاتلوه في بدر وأُحد ، وحاصروه في الخندق ، وقاتلوه في شتى الغزوات والسرايا ، وقتلوا العشرات والعشرات من جنده المؤمنين .

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣١٧٤) ، وأبو داود في المناسك (٢٠٢٧) ، وأحمد (٣٤٥٥)، عن ابن عباس .

(٢) رواه ابن ماجه في المناسك (٢٩٤٧) ، والحاكم في معرفة الصحابة (٦٩/٤) ، والبيهقي في الكبرى كتاب الحج (١٠١/٥) ، عن صفية بنت شيبة ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٣٨٤) .

(٣) الحديث قبل السابق .

(٤) عن عبد الله بن عمر ، أنه انتهى إلى الكعبة وقد دخلها النبي ﷺ وبلال وأسامة ، وأجاف عليهم عثمان بن طلحة الباب ، قال : فمكثوا فيه مليًا ، ثم فتح الباب ، فخرج النبي ﷺ ، ورقيت الدرجة فدخلت البيت ، فقلت : أين صلى النبي ﷺ؟ قالوا : ههنا . قال : ونسيت أن أسألهم كم صلى؟ متفق عليه : رواه البخاري في الصلاة (٣٩٧) ، ومسلم في الحج (١٣٢٩) ، كما رواه أحمد (٤٨٩١) ، وأبو داود في المناسك (٢٠٢٣) ، والنسائي في المساجد (٦٩٢) ، وابن ماجه في المناسك (٣٠٦٣) .

إنهم هم العُتاة القُساة الطُّغاة ، وقد أُتيحت منهم الفرصة ، وحان الموعد للنقمة والقصاص .

لا بدَّ أن يُحاكم إذن هؤلاء الخصوم ، فَتُضرب منهم الأعناق ، وتطيح الرؤوس ، أو تعمل الرماح والحراب في رقابهم دون محاكمة ولا مقاضاة .

هذا ما يتوقعه الناس في مثل هذا الموقف الرهيب ، وهذا ما يفعله المُنْتصرون في القديم والحديث .

ولو انتقم النبيُّ ﷺ منهم ما كان ظالما لهم ... ولكن رسول الله ﷺ ، صنع غير هذا ، لقد نادى قريشًا وهم ناكسو رؤوسهم ، ينتظرون الكلمة الفاصلة ، تخرج من بين شفتيه ، فقال : « يا معشر قريش ، ما تظنُّون أني فاعل بكم؟ » .

قالوا : خيرًا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

هنالك قال : « إني أقول ما قال يوسُف لإخوته : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ (يوسف:٩٢)، اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

وهكذا بكلمة واحدة ، أطلقهم الرسول ﷺ ، وأصدر هذا العفو العام ، وضرب المثل الأعلى في تسامح القادرين على الانتقام والاقتصاص . حتى إن أم هانئ بنت أبي طالب ، تجير حَمَوين لها مشركَين ، فيقرُّ النبيُّ ﷺ هذا التدخُّل من امرأة في شأن مِن شؤون الدولة ، ويعترف بهذا الأمان الخاص ، ويقول : « قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ »[2] .

اليومُ يوم برّ ووفاء :

وصلَّى عليه الصَّلاة والسلام ، في المسجد ، فقَدِم إليه عليُّ بن أبي طالب بعد أن جلس . . . عليٌّ ابن عمه وزوج ابنته ، جاء ومفتاح الكعبة في يده ، فقال :

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى كتاب السير (١١٨/٩) ، عن أبي يوسف ، أنه قال لهم حين اجتمعوا في المسجد : « ما ترون أني صانع بكم؟ » . قالوا : خيرًا أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، وانظر : تاريخ الطبري (١٦١/٢) ، والبداية والنهاية (٣٠١/٤) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الجزية (٣١٧١) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٣٣٦) ، كما رواه أحمد (٢٦٨٩٦) ، والترمذي في السير (١٥٧٩) ، والنسائي (٢٢٥) ، وابن ماجه (٤٦٥) ، كلاهما في الطهارة ، عن أم هانئ بنت أبي طالب .

يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السِّقاية صلَّى الله عليك . وكانت سقاية الحُجَّاج مع بني هاشم ، وهي مُكلفة وغُرْم لا غُنْم فيه ، بينما كانت الحجابة مع بني طلحة ، وهي غُنم لا غُرم فيه ، وكذلك طلب العباس عمُّ النبي في رجال من بني هاشم ، أن يختصهم الرسول بمفتاح الكعبة .

ولكن النبي ﷺ دعا عثمان بن طلحة ، الذي كان قد منع النبي يومًا من دخول الكعبة في مكة ، وأغلظ له ونال منه ، فلم يمنع ذلك النبي ﷺ ، أن يناديه ويقول له : « يا عثمان ، هاكَ مفتاحَكَ ، اليوم يوم وفاء وبر ، يا عثمان ، خذوها خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان ، إنَّ الله استأمنك على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف »[1].

ثم التفت إلى ابن عمه ، وعمه وغيرهما من بني هاشم وقال لهم : « إنما أعطيكم ما تُرزؤون لا ما تَرزأون »[2].

فإذا كان المنتصرون الذين يقبضون على أزمَّة السلطان ، يسارعون بتوزيع المغانم والأسلاب على الأقارب والأصحاب والمحاسيب ، فها هو ﷺ يوم الفتح الأعظم يُعطي أقرب الناس إليه ما يَزرأهم ويُكلِّفهم ، ويعطي البعيدين عنه والمُعادين له ، ما يجلب عليهم رزقا دارًّا ، وعيشا قارًّا .

الفضل كله لله :

عرف الناس الفاتحين المنتصرين تشمخ أنوفهم ، وتتمايل بنشوة النصر رؤوسهم ، وينسبون النصر والفضل في نجاحهم لكفايتهم وبراعتهم ومهارتهم ، وحُسن حيلتهم وتدبيرهم ، ولذلك يُوعزون إلى أتباعهم وأنصارهم أن يهتفوا بأسمائهم ، ويُشيدوا بذكرهم ، ويرفعوا صورهم في كل مكان .

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٨٣/٣٨) .

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٦١/٩) ، عن ابن أبي مليكة ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني مرسلا ورجاله رجال الصحيح (٢٥٩/٦) .

ولكن النبيَّ ﷺ نسب الفضل في هذا النصر كلِّه إلى الله وحده ، فكان هتافه ونشيده الدائم في هذا اليوم العظيم : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده »[1] ، فهكذا كان ﷺ .

صلاة الفتح :

ودخل دار أم هانئ بنت عمِّه فاغتسل وصلَّى ثماني ركعات في بيتها ، وكان الوقت ضحى ، فظنَّها من ظنَّها صلاة الضحى ، وإنما هي كما قال الحافظ ابن القيم : صلاة الفتح[2] . ولهذا قالت أم هانئ : ما رأيته صلاها قط قبلها ولا بعدها[3] .

وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا بلدًا أو حصنًا ، صلوا عقيب الفتح هذه الصلاة اقتداءً برسول الله ﷺ[4] .

مبادئ لا تتغيَّر :

وعرَف الناس أصحاب المبادئ ، عرَف الناس كثيرًا من أصحاب المبادئ والعقائد يتمسكون بها قبل أن يتمكَّنوا ويحكموا وينتصروا ، فإذا حكموا وانتصروا تبخَّرت هذه المبادئ العذْبة ، وارتدوا على أعقابهم القهقرى ، وأصبحت هذه المبادئ حبرًا على ورق ، أو كلامًا أجوف .

ولكن الرسول ﷺ ، الذي نادى بالعدل والمساواة من أول يوم وهو في مكة ، لم يتخلَّ عنها لحظة واحدة ، فها هو يأخذ بعِضادتي الكعبة ، ويعلن في قريش أهل الحسب والنسب ، وأولي العزة والفخار فيقول : « يا معشر قريش إن الله قد أذهب

---

(١) عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ ، خطب يوم الفتح بمكة فكبر ثلاثًا ، ثم قال : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ». رواه أبو داود في الديات (٤٥٤٧) ، والطيالسي (٢٢٧٠) ، والدارقطني في السنن كتاب الحدود والديات (١٠٤/٣) ، والبيهقي في الكبرى كتاب الديات (٦٨/٨) .

(٢) انظر : زاد المعاد (٣٣٠/١) .

(٣) سبق تخريجه في صـ ١٧٨ . وفيه : « أجرنا من أجرتِ » ، وروى قولها : ما رأيته . . . الحميدي في المسند (١٥٨/١) .

(٤) انظر : زاد المعاد (٣٦١/٣) .

عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظُّمها بالآباء ، الناس لآدم ، وآدم من تراب»[1]، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣).

ذلكم هو رسول الله ﷺ في يوم الفتح .

استمساكٌ بالحق إلى أبعد مدى ، وسماحة وعفو ، وخشوع وتواضع ، وصلاة واستغفار ، وإنابةٌ إلى الله عز وجل ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر:١-٣) .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الظَّفَر على عدُّونا ، وأن يفتح لنا فتحًا مبينًا ، ويهدينا صراطًا مستقيمًا ، وينصرنا نصرًا عزيزًا ، وأن يجعلنا أهلاً لنصره الذي وعد به المؤمنين .

* * *

(١) رواه أحمد (٨٧٣٦) وقال مخرِّجوه : إسناده حسن ، وأبو داود في الأدب (٥١١٦) ، والترمذي في المناقب (٣٩٥٦) ، وقال : حسن صحيح ، عن أبي هريرة ، ونصُّه : « إنَّ الله عزَّ وجل قد أذهب عنكم عبيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقيّ وفاجر شقيّ ، والناس بنو آدم وآدم من تراب ، لينتهينَّ أقوام فخرهم برجال ، أو ليكونُنَّ أهون عند الله من عدتهم من الجعلان ، التي تدفع بأنفها النتن ».